الفصل الثانى

ظهور الإسلام فى مكة المكرمة

مكة المكرمة

قال تعالى فى سورة النازعات: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [سورة النازعات: الآيتين ٣٠: ٣١] وقد كشف العلم الحديث أن الأرض بعد أن انفصلت كتلتها عن الشمس أخرجت من باطنها ما يعرف بالقشرة الأرضية وهو الماء والمرعى وأن هذه القشرة الأرضية نمت حول تلك الفوّهة التى أخرجت الماء والمرعى لتكون قارة واحدة هى القارات الأم التى يطلق عليها العلماء اسم بانجيا Pangaea والتى تفتّتت إلى القارات السبع الحالية، وكانت تلك القارات السبع أقرب إلى بعضها البعض فى البداية، ثم أخذت تنزاح عن بعضها حتى وصلت إلى أوضاعها الحالية، وحيث إنه ثبت أن مكة المكرمة تتوسط اليابسة كل مراحل نمو تلك اليابسة، وأن الكعبة على الفوّهة التى بكت القشرة الأرضية حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾[سورة آل عمران: الآية: ٩٦]

حيث إنه ثبت أن هذا الموقع مازال يخرج منه الماء (ماء زمزم) أسفل الكعبة بنحو ٣٠ مترًا فيكون موقع الكعبة هو رحم اليابسة وهو ما عبر عنه بأم القرى ومكة المكرمة.

باب الكعبة مغلف بالذهب ويزن هذا الغطاء ٢٨٠ كيلو جرام ذهب، وقد أهدى الملك خالد إلى الكعبة هذا الباب.

ويقال إن أول من كَسى الكعبة أحد ملوك حِمْيَر قبل الإسلام.

ولم يكن هناك ببلاد الحجاز فى الجاهلية ما يسمى بالدولة، وإنما قام بها مدن لكل منها نظام سياسي، كان من أشهرها مكة والطائف ويثرب وإن كانت مكة المكرمة أعظمها شأنا لوجود البيت الحرام الكعبة المشرفة والكعبة المشرفة هى أول بيت وضع على وجه الأرض على الإطلاق، وهذا ما يفهم من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [سورة آل عمران: الآية: ٩٦] كما يفهم من التعبير القرآنى (وضع للناس) **أمرين:**

الأمر الأول: أنه وُضِع من قبل أن يأتى الناس وبذلك يكون النص القرآنى قد نفى أن يكون

أحد من الناس هو أول من بناه، وإن كان هذا فلا يمنع أن ترفع قواعد البيت بعد ذلك مرة ومرات بأيدى الناس.

الأمر الثانى: أن النص القرآنى عبر بكلمة (وُضِع)، ولم يعبر بكلمة بُنِى أو أُنْشِأ أو أُقِيم، ويُفهم من هذا أنه وضع على الأرض جاهزا، وأن بناءه لم يتم على الأرض ابتداء، وهذا لا يمنع أيضا أن يعاد بناؤه مرة ومرات بأيدى الناس كلما كانت هناك حاجة كما ورد ذلك فى كتب التاريخ. وانطلاقا مما سبق نستنتج أن الكعبة المشرفة هى أول بيت استقبل أول زوجين هبطا على الأرض (آدم وحواء) – عليهما السلام – وهى أيضا أول بيت عبد الإنسان فيه الله عز وجل.

كما أن الكعبة المشرفة هى أول بيت خرجت منه الأسرة البشرية جمعاء. ولهذا كان (مباركا وهدى للعالمين)، فإن أرضه التى وضع عليها وهى مكة المكرمة. هى أول ما تكون من الأرض، ومنها خرجت الأرض كاملة فقد قال عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: (دحيت الأرض من مكة فمدّها الله – تعالى – من تحتها فسميت أم القرى). فنحن نعلم أن (الدحو) فى القرآن الكريم هو خروج الماء والمرعى من الأرض لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾[سورة النازعات: الآيتين: ٣٠-٣١] وبذلك تكون أرض مكة هى الأصل الذى خرجت منه بكامل هيئتها. ويبقى أن نشير **إلى الحقائق الآتية:**

أنه قد ثبت علميا أن مكة المكرمة هى مركز اليابسة، وأن الكعبة هى بؤرة اليابسة، وهو ما أشار إليه القرآن فى سورة الشورى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾. [سورة الشورى: الآية: ٧] أن أركان الكعبة المشرفة فى الاتجاهات الأربعة الأصلية تماما.

ثبوت الطبيعة النيزكية للحجر الأسود مما يثبت أنه من أحجار السماء. وليس الأرض. ومكة تعد من أهم حواضر الحجاز وهى عبارة عن قرية فى واد ضيق غير ذى زرع تحيط به الجبال من جميع الجهات.

والعمالقة هم أقدم ما وصلنا من القبائل التى سكنت مكة، ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية، وفى عهدها قدم إلى مكة سيدنا إبراهيم مع زوجه هاجر وابنه إسماعيل، وأصبح

لها فيما بعد السيادة على البيت الحرام، غير أن ولاتها لم يراعوا حرمة هذا البيت فكثر فى أيامهم البغى والفساد، واغتصب كثير منهم مال الكعبة الذى كان يُهدى إليها. ويُقال إن ماء زمزم نضب فى عهدهم. كما أن البئر نفسها زالت معالمها.

وبينما كانت جرهم مقيمة بمكة تفرق عرب اليمن بسبب سيل العَرِم. فهاجر ثعلبة بن عمرو بن عامر إلى مكة هو وقومه، فرفضت جرهم أن تسمح له بالإقامة فى هذه المدينة واشتبكت معه فى قتال دام ثلاثة أيام انتهى الأمر فيه بهزيمتها.

ظل ثعلبة بن عمرو مقيما بمكة حتى أصابته الحمى، فرحل إلى الشام وولى أمر مكة وحجابة الكعبة ابن أخيه ربيعة بن حارثة بن عمرو وهو لحى، وعُرف قومه بخزاعة. وقد انحاز إليهم بنو إسماعيل بن إبراهيم – وكانوا قد اعتزلوا الحرب التى دارت بين جرهم وثعلبة.

آلت ولاية مكة والحجابة إلى عمرو بن لحى بعد وفاة أبيه وعلت مكانته بين العرب على حد أن قوله أصبح دينا لا يخالف. وكان عمرو بن لحى أول من أطعم الحجاج بمكة لحوم الإبل على الثريد، كما قام بنصب الأصنام حول الكعبة وأحل عبادة الأوثان محل الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام.

ظلت خزاعة تلى البيت الحرام بمكة نحوا من ثلاثمائة سنة وكانت قريش إذ ذاك متفرقة فى بنى كنانة تزعمها قصى بن كلاب ووحد بين بطونها.

ويذكر بعض المؤرخين عن طموح قصى إلى نصرة قريش وحرصه على تقلدها الرئاسة بمكة أن أباه كلابا توفى وتركه صغيرا مع أمه فاطمة بنت عمرو التى تزوجت ربيعة بن حرام – وهو من قضاعة، ثم رحلت مع زوجها إلى أرض قضاعة ببلاد الشام وأخذت بصحبتها ابنها قصى فلما بلغ قصى أشده تحدث إليه رجل من قضاعة بقوله: "ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا، فاستاء قصى من هذا الرجل وأخبر أمه بذلك الحديث، فقالت له: "والله أنت يا بنى خير منه وأكرم، أنت ابن كلاب بن مرة وقومك عند البيت الحرام وما حوله" فصمم قصى على الخروج إلى قومه واللحاق بهم وكره الغربة فى أرض قضاعة، وما لبث أن سار إلى مكة، وأقام بها وتزوج ابنة زعيم خزاعة حليل بن حبيشية بن سلول الذى كان يلى إذ ذاك أمر الكعبة ومكة، وظل قصى مقيما معه حتى أنجب أولاده عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى.

كان حليل يثق بابنته زوجة قصى، فإذا ما أصابه المرض، سلمها مفتاح الكعبة لتقوم

بشئونها بدلاً منه، وكانت بدورها تعطى المفتاح لزوجها حين يتعذر عليها الخروج من بيتها بسبب المرض.

ولما شعر زعيم خزاعة بدنو أجله. دعا قصيا وعهد إليه بولاية البيت الحرام كما سلم إليه مفتاح الكعبة، غير أن قبيلة خزاعة ما لبثت بعد وفاة زعيمها أن حالت بين قصى وبين الإشراف على شئون البيت الحرام، وأخذت مفتاح الكعبة من زوجته، فبعث قصى إلى قريش يطلب منها مؤازرته ضد خزاعة. فلبى القرشيون دعوته، كما سارع القضاعيون إلى نجدته حين أرسل إليهم يدعوهم لنصرته ويخبرهم بما قامت به خزاعة من الحيلولة بينه وبين ولاية البيت الحرام. وخرج قصى بمن انضم إليه من قريش وقضاعة لمحاربة خزاعة بمنى، فدار بين الفريقين قتال شديد، ثم تداعوا إلى الصلح بعد أن تداخلت قبائل العرب بينهم، واتفقوا، على أن يُحكِّموا بينهم رجلا من العرب فيما اختلفوا فقضى بينهم ذلك الرجل بأن قصيا أولى بحجابة الكعبة وأمر مكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع. وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبنى كنانة وقضاعة ففيه الدية. كما حكم لخزاعة بأن تظل فى مساكنها بمكة، وبذلك أصبح قصى ملكا على قومه وأهل بيته، كان أول من ظفر بالملك ولد كعب بن لؤى وساعد على رفع مكانة قريش بين العرب وازدياد نفوذها بمكة، وقصى هذا هو الجد الرابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قام قصى بتقسيم مكة إلى رباع، وزعها بين قومه، وأبقى لكل فريق منهم منازلهم التى استقروا بها. كما أنشأ دار الندوة، وفيها كان يجتمع كبار القرشيين تحت رئاسته للتداول فى شئونهم، ولم يكن يدخلها من قريش إلا من بلغ الأربعين من عمره، ثم تصدى لإطعام الحجاج وسقايتهم على اعتبار أنهم ضيوف الله وزوار بيته، وفرض على قريش خراجا سنويا يؤدونه إليه لينفق منه على إطعام فقراء الحجاج.

كان لقريش مركز كبير بين القبائل العربية من جراء سيادتهم على الكعبة كما علت مكانتها بين العرب لعقدها حلف الفضول، ذلك أن بعض قبائل قريش اجتمعت فى دار عبد الله بن جدعان التيمى وتعاهدوا على أن ينصروا كل مظلوم بمكة سواء أكان من أهلها أم من سائر الناس، وأن يكونوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وسُمى هذا الحلف حلف الفضول لأنهم تحالفوا على رد الفضول إلى كل مقيم بمكة. وقد دخل فى الحلف بنو

هاشم والمطلب وبنو أسد بن عبد العُزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة، ولم يشترك فيه بنو عبد شمس وبنو نوفل بن عبد مناف وشهده رسول الله ﷺ.

محمد -صلى الله عليه وسلم- قبل البعثة:

تدلنا الأخبار عن حياته ﷺ قبل البعثة على **الحقائق التالية:**

أنه ولد فى أشرف بيت من بيوت العرب، فهو من أشرف فروع قريش، وهم بنو هاشم، وقريش أشرف قبيلة فى العرب، وأزكاها نَسَبا، وأعلاها مكانة، وقد روى عن العباس رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "**إن الله خلق الخلق، فجعلنى من خيرهم من خير فرقهم، وخير الفريقين. ثم تخير القبائل، فجعلنى من خير قبيلة، ثم تخير البيوت، فجعلنى من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا، وخيرهم بيتا**". ولمكانة هذا النسب الكريم فى قريش لم نجدها فيما طعنت به على النبى ﷺ لاتضاح نسبه بينهم، ولقد طعنت فيه بأشياء كثيرة مفتراة إلا هذا الأمر.

أنه نشأ يتيما، فقد مات أبوه عبد الله وأمه حامل به لشهرين فحسب، ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمه آمنة فذاق ﷺ فى صغره مرارة الحرمان من عطف الأبوين وحنانهما، وقد كفله بعد ذلك جده عبد المطلب، ثم توفى ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ثمان سنوات، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب حتى نشأ واشتد ساعده، وإلى يتمه أشار القرآن الكريم: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ [سورة الضحى: الآية: ٦] أمضى رسول الله ﷺ السنوات الأربع الأولى من طفولته فى الصحراء فى بنى سعد، فنشأ قوى البنية، سليم الجسم، فصيح اللسان، جرىء الجنان، يحسن ركوب الخيل على صغر سنه قد تفتحت مواهبه على صفاء الصحراء وهدوئها، وإشراق شمسها ونقاوة هوائها.كانت تعرف فيه النجابة من صغره، وتلوح على محياه مخايل الذكاء الذى يحببه إلى كل من رآه، فكان إذا أتى الرسول وهو غلام جلس على فراش جده، وكان إذا جلس عليه لا يجلس معه على الفراش أحد من أولاده (أعمام الرسول)، فيحاول أعمامه انتزاعه عن الفراش، فيقول لهم عبد المطلب، دعوا ابنى، فوالله إن له لشأنا.

أنه عليه الصلاة والسلام كان يرعى فى أوائل شبابه لأهل مكة أغنامهم بقراريط يأخذها أجرا على ذلك، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: "**ما من نبى إلا قد رعى الغنم**" قالوا: وأنت يا رسول الله ؟ قال: "**وأنا**" وفى رواية أخرى أنه قال: "**ما بعث الله نبيا إلا رعى**

الغنم" فقال له الصحابة: وأنت يا رسول الله ؟ فأجاب: "**وأنا رعيتها لأهل مكة على قراريط**" ثم لما بلغ من عمره خمسا وعشرين عمل لخديجة بنت خويلد فى التجارة بمالها على أجر تؤديه إليه.

لم يشارك عليه الصلاة والسلام أقرانه من شباب مكة فى لهوهم ولا عبثهم، وقد عصمه الله من ذلك، فقد استفاض فى كتب السيرة أنه سمع وهو فى سن الشباب غناء من إحدى دور مكة فى حفلة عُرْس، فأراد أن يشهدها، فألقى الله عليه النوم، فما أيقظه إلا حر الشمس، ولم يشارك قومه فى عبادة الأوثان، ولا أكل شيئاً مما ذُبح لها، ولم يشرب خمراً، ولا لعب قمارا، ولا عرف عنه فحش فى القول، أو هجر فى الكلام.

وعرف عنه منذ إدراكه رجحان العقل، وأصالة الرأي، فقد أصاب الكعبة سيل أدى إلى تصدع جدرانها، فقرر أهل مكة هدمها وتجديد بنائها، وفعلوا، فلما وصلوا إلى مكان الحجر الأسود فيها اختلفوا اختلافا شديدا فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه، وأرادت كل قبيلة أن يكون لها هذا الشرف، واشتد النزاع حتى تواعدوا للقتال، ثم ارتضوا أن يحكم بنيهم أول داخل من باب بنى شيبة، فكان هو رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا بحكمه، فلما أخبر بذلك، حل المشكلة بما رضى عنه جميع المتنازعين، فقد بسط رداءه، ثم أخذ الحجر فوضعه فيه، ثم أمرهم أن تأخذ كل قبيلة بطرف من الرداء، فلما رفعوه، وبلغ الحجر موضعه، أخذه ووضعه بيده، فرضوا جميعا، وصان الله بوفور عقله وحكمته دماء العرب من أن تسفك إلى مدى لا يعلمه إلا الله.

عرف عليه الصلاة والسلام فى شبابه بين قومه بالصادق الأمين، واشتهر بينهم بحسن المعاملة، والوفاء بالوعد، واستقامة السيرة، وحسن السمعة، مما رغب خديجة فى أن تعرض عليه الاتجار بمالها فى القافلة التى تذهب إلى مدينة بصرى كل عام على أن تعطيه ضعف ما تعطى رجلا من قومها، فلما عاد إلى مكة وأخبرها غلامها ميسرة بما كان من أمانته وإخلاصه، ورأت الربح الكثير فى تلك الرحلة، أضعفت له من الأجر ضعف ما كانت أسمت له، ثم حملها ذلك على أن ترغب فى الزواج منه، فقبل أن يتزوجها وهو أصغر منها بخمسة عشر عاما، وأفضل شهادة له بحسن خلقه قبل النبوة قول خديجة له بعد أن جاء الوحى فى غار حراء وعاد مرتعدا : كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ (الضعيف)، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.

سافر مرتين خارج مكة، **أولاهما** : مع عمه أبى طالب حين كان عمره اثنى عشرة سنة، **وثانيهما:** حين كان عمره خمسا وعشرين سنة، متاجرا لخديجة بمالها، وكانت كلتا الرحلتين إلى مدينة "بصرى" فى الشام.

حبب الله إليه عليه الصلاة والسلام قبيل البعثة بسنوات أن يخرج إلى غار حراء – وهو جبل يقع فى الجانب الشمالى الغربى من مكة، على قرب منها – يخلو فيه لنفسه مقدار شهر – وهو شهر رمضان – ليفكر فى آلاء الله، وعظم قدرته، واستمر على ذلك حتى جاءه الوحى، ونزل عليه القرآن الكريم.

البعثة النبوية:

نزل الوحى على الرسول ﷺ: لما تم النبى ﷺ أربعون سنة. نزل عليه جبريل بالوحى فى يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان، ويحدثنا الإمام البخارى رضى الله عنه فى "صحيحه" بالسند المتصل إلى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن كيفية نزول الوحى عليه، فتقول: "أول ما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه – وهو التعبد– الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة العلق: ١–٦]، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، فقال: زملونى، زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى، فقالت خديجة: كلا والله لا يحزنك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان ابن عم خديجة، وكان امرءا تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية

ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس – صاحب الوحى وهو جبريل – الذى نزل على موسى، يا ليتنى فيها جذعا – شابا قويا – ليتنى أكون إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى".

وفى رواية ابن هشام عن ابن إسحق: أن جبريل جاءه وهو نائم فى غار حراء بنمط – وعاء– من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ ... إلخ، قال : فقرأتها، ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى، فكأنما كتبت فى قلبى كتابا، قال: فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، وقال: فرفعت رأسى إلى السماء أنظر. فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه. فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى..... إلخ.

كان أول من آمن به ودخل فى الإسلام زوجه خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، ثم ابن عمه على رضى الله عنه وهو ابن عشر سنين، ثم مولاه زيد بن حارثة، ثم أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وكان أول من أسلم من العبيد بلال بن رباح الحبشى، وعلى ذلك تكون خديجة أول من آمن به إطلاقا، وقد صلى رسول الله ﷺ معها آخر يوم الإثنين وهو أول يوم من صلاته، وكانت الصلاة ركعتين بالعشى.

ثم فتر الوحى بعد ذلك فترة من الزمن اختلفت الروايات فى تقديرها، فأقصاها ثلاث سنوات، وأدناها ستة أشهر وهو الصحيح.

يذكر ابن هشام فى سيرته: أن رسول الله ﷺ لما بادى قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يبعد من قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها؛ فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعدواته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا : لماذا لم تبد قريش اهتماما لظهور دين جديد فى مكة، بينما ذكر آلهتهم وعابها فأسرعت بتعديل موقفها وأجمعوا خلافه وعداوته ؟!

نحن نعلم أن جزيرة العرب فى الجاهلية قد حوت معظم أديان العصر القديم، فقد شاعت فيها الوثنية وعبادة النجوم والكواكب والمجوسية والزرادشتية واليهودية والنصرانية وغير ذلك، فما الذى يضير أن ينضم إلى هذا العدد الكبير من الأديان دين جديد !؟أما انزعاج القوم فيرجع إلى أن الدين الجديد قد ذكر آلهتهم وعابها، وهذا ما لم يحدث من قبل من الأديان الأخرى ! !

ولكن ماذا يفعل القوم ليُسكتوا محمد ﷺ عن هذه الدعوة بعد أن وجدوه مستمرًا فى دعوته ولم يعبأ بخلافهم !؟

لذلك لم يكن أمام القوم فى بداية تصاعد العداوة لتلك الدعوة الجديدة إلا أن يشتكوا محمدا صلى الله عليه وسلم إلى عمه أبى طالب سيد مكة، فذهب وفد من أشراف قريش إلى أبى طالب فقالوا: "يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفكيه فقال لهم أبو طالب: قولا رقيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه.

ولما وجد القوم أن رسول الله ﷺ ماضٍ على ما هو عليه، يُظهر دين الله، ويدعو إليه، ولم يجدوا أى رد فعل لشكواهم عند أبى طالب، ذهب وفد القوم مرة أخرى إلى أبى طالب وقالوا له: يا أبا طالب ، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين أو كما قالوا له. ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا بن أخى، إن قومك قد جاءونى، فقالوا لى كذا وكذا، للذى كانوا قالوا له، فابق علىّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق؛ فقال رسول الله ﷺ: "يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته. قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى ثم قال، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: اذهب يا ابن أخى، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا.

ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان محمد ﷺ مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد (أشد وأقوى) فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا لك فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذى خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل؛ فقال: والله لبئس ما تسومونني ! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدا. فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منه شيئا؛ فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ، فاصنع ما بدا لك.

ويورد ابن سعد فى طبقاته رواية لا نجدها فى المصادر الأخرى، هذه الرواية تشير إلى محاولة مبكرة من زعماء قريش لاغتيال محمد ﷺ وكيف أنهم بعد فشل مفاوضاتهم مع أبى طالب قالوا: ما خير من أن يغتال محمد، فلما كان مساء تلك الليلة بحث أبو طالب عن محمد ﷺ فلم يجده فظن أنه أصيب بمكروه، فجمع فتيانا من بنى هاشم وبنى المطلب، وأمر كلا منهم أن يحمل حديدة صارمة لقتال زعماء القوم إذا ثبت قتلهم لمحمد ﷺ إلا أن أبا طالب سرعان ما أبلغ أن محمدا يجلس الآن فى داره بالصفا بمنأى عن الشر. وفى اليوم التالى صحب أبو طالب ابن أخيه إلى أندية القريشيين ومعه فتيان بنى هاشم والمطلب، وراح يقول لهم: "يا معشر قريش، هل تدرون ما هممت به ؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبر وقال للفتيان: اكشفوا عما فى أيديكم، فكشفوا فإذا كل رجل منهم يحمل حديدة صارمة، فقال: والله لو قتلتموه ما بقيت ومنكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم.

ويبدو أن محاولة الاغتيال هذه التى أوردها ابن سعد فى طبقاته لا تعدو عندنا أكثر من اقتراح باغتيال محمد ﷺ، أما الاعتقاد بأنه كان أمرا من قريش تهيأ للخروج على حيز التنفيذ فهذا ما لا صحة له عندنا، والدليل على ذلك أن قريشا حينما أجمعت رأيها على قتل محمد ﷺ – فيما بعد – حينما عُلِّقت صحيفة المقاطعة فى جوف الكعبة – كما سنرى بعد ذلك – حرصت كل الحرص أن يكون ذلك بموافقة بنى هاشم وبنى المطلب.

فكيف تقرر ذلك فى الوقت الذى لم تعدم فيه كل حيلها!؟

على العموم فإن هذه الرواية إن دلت فإنما تدل على يأس قريش من أن يتراجع محمد

ﷺ عن دعوته. لذلك فإن مسيرة الأحداث بعد ذلك تدلنا على أن قريشا حرصت على أن تبحث عن وسيلة أخرى توقف بها مسيرة الدعوة بعيدا عن محمد ﷺ وعمه أبى طالب – كما سنرى فى السطور القادمة.

قريش تتصدى للدعوة الإسلامية:

أدركت قريش أنه لا جدوى من أى محاولة تبذلها بعد ذلك مع أبى طالب ليسكت محمد ﷺ عن دعوته. لذلك قررت قريش أن تدع أسلوب التفاوض وتلجأ إلى العنف. ولكن مع من سيكون هذا العنف !؟ مع محمد ﷺ!؟ فهو ابن الأكرمين، ثم إن قريشا فشلت فى أن تضم أبا طالب إلى صفوفها أو حتى تُحَيّده !؟

إذن فالعنف لن يكون إلا مع المؤمنين. فيقول ابن هشام نقلا عن ابن إسحق: ثم إن قريشا تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله ﷺ منهم بعمه أبى طالب، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه على ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبى لهب، عدو الله المعلون.

ولكن يبقى سؤال: ألم تكن عداوة قريش للدين الجديد عائقا لانتشار ذلك الدين!؟ ألم يكن من مصلحة الدين الجديد ألا يخلق له عداوات حتى يتحقق له ولو شىء من الانتشار.. ثم بعد ذلك فليكن ما يكن!؟

إن قسوة الحياة فى جزيرة العرب قد فرضت على إنسان الجزيرة فى الجاهلية أن يكون الدين على هامش شعوره، وهذا معناه أن أتباع الدين الجديد إن لم يمروا بمحنة تتبلور فيها عقيدتهم فإنهم حتما سيكونون من نفس الطراز السابق، والدين الإسلامى باعتباره آخر الرسالات السماوية فهى ليست بحاجة إلى ذلك المؤمن الضعيف، بل هى فى حاجة ماسة إلى ذلك المؤمن القوى الذى يستطيع أن يحمى هذه الدعوة حتى آخر الزمان. وهكذا حرص الإسلام منذ سنواته الأولى على أن يزرع فى نفوس المؤمنين به إيمان لا تزعزعه الشدائد. إيمان يقهر به المسلم نفسه قبل أن يقهر غيره.

التشهير بمحمد -صلى الله عليه وسلم-:

بعد أن فشلت قريش فى أن توقف الدعوة بتعذيب المؤمنين، لم تجد التشهير بشخص محمد ﷺ لوقف الدعوة فأغروا به سفهاءهم فكذبوه وآذوه، ورموه بالشعر والكهانة والجنون.

يقول ابن هشام: ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيا نقول به، وقال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر: قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطة، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول: ساحر، قال ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجناه – قال ابن هشام: ويقال لغدق – وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جال بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره، ثم يذكر ابن هشام: قال ابن إسحق: فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس.

فى هذه الفترة لقى رسول الله ﷺ أشد ما لقى من قريش حتى إنه خرج يوما فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه، لا حر ولا عبد، فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.[سورة المدثر: الآية ١].

ثم ماذا كانت النتيجة !؟ لم تسفر نتائج ما فعلته قريش بالتشهير بمحمد ﷺ إلا انتشارا لذكره، وما صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها.

ورأت قريش أن تستعين عليه بأحبار اليهود فى يثرب، فهم أهل الكتاب الأول، فذهب إليهم النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط فسألا أحبار اليهود عن رسول الله، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فَرَوا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبى".

وقد قيل إن هذه الأسئلة لما ألقتها قريش على محمد ﷺ لم يجب عليها من فوره، حتى يأتيه الوحى، وقد شق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف وفيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح.

انتهت قريش على أن وقف الدعوة الإسلامية لن يكون إلا بفتنة المستضعفين من المسلمين ليعودوا عن إسلامهم وليكونوا عبرة لمن تأهب لاعتناق الإسلام. لذلك وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم. وكان بلال بن رباح عبدا من عبيد أمية بن وهب الجمحى، وكان أمية يخرج بلالا إذا حميت الظهيرة، فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو فى ذلك البلاء: أحد أحد. حتى مر به أبو بكر الصديق يوما، فقال لأمية: ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟ حتى متى؟! قال أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر: أفعل، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به، قال: قد قبلت فقال: هو لك. فأعطاه أبو بكر الصديق رضى الله عنه غلامه ذلك، وأخذه فأعتقه وكان بلال هو سابع من أعتقهم أبو بكر على الإسلام، كما أعتق النهدية وبنتها ولبينة جارية ابن المؤمل.

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه وأمه، إذا حميت الظهيرة ليعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: "**صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة**". فأما أمه فقتلوها، وهى تأبى إلا الإسلام.

وكان أبو جهل إذا سمع بإسلام أحد من الأشراف يذهب ويقول له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنقبحن رأيك، ولنضعن شرفك، وإذا سمع بإسلام أحد من التجار قال له: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، أما إذا كان الرجل ضعيفا ضربه وأغرى به.

وكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم.

فقد كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسا من شدة الضر الذى نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، **حتى يقولوا له:**

اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول نعم، حتى إن الجعل ليمر بهم، فيقولون له : أهذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول: نعم افتداء منهم مما يبلغون من جهده.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة فى الإسلام، وكان عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ أول من هاجر إلى الحبشة وتبعها المسلمون فى الفرار من مكة، وهكذا حاول رسول الله ﷺ بفتح باب الهجرة إلى الحبشة إعادة فتح باب الدعوة إلى الإسلام بعد أن تمكنت قريش من إغلاقه بشتى أساليب التعذيب التى مارستها مع كل من يدخل فى الإسلام.**ولماذا الحبشة !؟**

أجمعت كتب التاريخ على أن السبب فى اختيار الحبشة لتكون دارًا لأول هجرة للمسلمين هو أن بها ملكا لا يظلم عنده أحد. وإذا كان هذا أمر فى غاية الأهمية لأن المهاجرين خرجوا من ديارهم فرارا من الظلم الذى لحق بهم من المشركين، وكما سنرى بعد قليل أن هذا الظلم سوف يطاردهم فى أرض الهجرة ولولا عدل النجاشى لوقعوا فى الظلم مرة أخرى وأصبحت الهجرة إلى الحبشة لا معنى لها.

أيضا اجتمعت للحبشة من الأسباب ما جعلها تميزت عن غيرها وأن يقع عليها الاختيار:

أولا: فبالرغم أن الحبشة يفصلها عن جزيرة العرب بحر هو البحر الأحمر فالحبشة أقرب البلدان من جزيرة العرب من حيث أعباء السفر حيث إن الأمر لا يحتاج إلا إلى عبور البحر فقط.

ثانيا: أن مجتمع الحبشة هو أبعد ما يكون عن قريش، لأنهم إن أرادوا الوصول إلى الحبشة فلابد أن يركبوا البحر.

ثالثا: أن الحبشة أهل كتاب ولكنهم يتميزون عن أهل الكتاب فى الشام أو مصر أنهم كانوا بعيدين عن طاحونة الخلاف التى كانت تعيشها الكنيسة الرومانية فى الشام ومصر.

رابعا: أن الحبشة كانت دولة مرهوبة الجانب وكانت مكة فى متناول يدها إذا سمحت الظروف إلى ذلك فعام الفيل ليس ببعيد.

أدركت قريش أن الرسول ﷺ قد أحبط خطتهم لوقف الدعوة. فماذا تفيد فتنة المسلمين بعد فتح باب الهجرة إلى الحبشة !؟

لذلك فقد قررت قريش أن تسعى جاهدة لإغلاق باب الهجرة إلى الحبشة فى وجه المسلمين فبعثت إلى الحبشة عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص بعد أن جمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته من أعجب ما يأتى مكة من الجلود، لكن النجاشى رفض رد المسلمين إلى مكة بعد ما استمع إلى المسلمين فوشى إليه عمرو بن العاص فى اليوم التالى بأن المسلمين يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما. فأرسل النجاشى مرة أخرى إلى المسلمين يستدعيهم لحضرته، ولكنه سرعان ما تبين بعد مناقشاتهم افتراء قريش ومدى عداوتها للمسلمين.

لقد كان لفشل وفد قريش إلى النجاشى، وإسلام حمزة بن عبد المطلب فى هذه الفترة، وإسلام عمر بن الخطاب أيضا أثر كبير فى تقوية شأن المسلمين بمكة، وأصبح من اليسير على المسلمين أن يجهروا بتلاوة القرآن الكريم والصلاة عند الكعبة، كما دخل فى الإسلام كثير من أهل مكة اقتداءً بحمزة وعمر رضى الله تعالى عنهما.

يذكر ابن هشام أن قريشا اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى المطلب، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعون شيئا ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم.

كان من أثر هذه المقاطعة أن انحاز بنو المطلب وبنو هاشم إلى شعب أبى طالب بشرق مكة وظلوا مقاطعين ثلاث سنين، لقوا فيها كثيرا من العناء، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، ولا يصل إليهم القوت الضرورى إلا خفية وأخيرا أخذت الحمية والرأفة نفرا من القرشيين خرجوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب وأمروهم بالعودة إلى مساكنهم، وبذلك نقضت صحيفة المقاطعة.

فقد الرسول بعد حادث المقاطعة بقليل عمه أبا طالب وزوجه؛ فتألم لفقدهما فى عام واحد وسماه عام الحزن، واشتد أذى قريش له بعد وفاة عمه، وقال: "**ما نالت قريش منى شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب**"، ذلك أنه لم يكن فى عشيرته وأعمامه حاميا له ولا مدافعا عنه غيره.

رأى الرسول بعد أن نالت قريش منه وتجرأت على إلحاق الأذى به بعد وفاة عمه أبى طالب، أن يلجأ إلى بلد آخر غير مكة، ينشر فيها دعوته، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف النصر ويدعوهم إلى عبادة الله. فأقام بالطائف عشرة أيام، دعا خلالها سادة ثقيف وهم عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنى عمرو بن عمير إلى نصرته والقيام معه على من خالفه؛ فلم يجيبوه، وخافوا على أحداثهم أن يتأثروا بدعوته، وطلبوا منه الخروج من بلدهم، وأغروا به سفهاءهم، فصاروا يرمونه بالحجارة، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى شج فى رأسه، ثم انصرف الرسول من الطائف عائدا إلى مكة دون أن يستجيب له أى فرد من أهالى ذلك البلد.

ولما وصل الرسول إلى حراء عائدا من الطائف، بعث رجلا من خزاعة إلى المطعم بن عدى ليجيره حتى يبلغ رسالة ربه؛ فأجاره ودخل رسول الله مكة وعاود نشر الإسلام بين أهلها. ولم يمض غير قليل حتى أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، حيث عرج به من الصخرة المقدسة إلى سدرة المنتهى. يقول الله تعالى:

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [سورة الإسراء: الآية: ١]

الإسراء والمعراج:

رغم ما كشفت عنه حادثة الإسراء والمعراج من تكريم الله عز وجل لرسوله الأمين – ﷺ – حيث قال سبحانه ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ ﴾، [سورة الإسراء: الآية: ١] فقد كشفت حادثة الإسراء والمعراج أيضا أن بعض المسلمين رغم إيمانهم بالله الذى لم تزعزعه الشدائد التى لاقوها فى مكة قبل الهجرة، فإنهم لم يكونوا يؤمنون بمحمد ﷺ، بدليل إنكارهم لما رواه لهم من وقائع حادثة الإسراء والمعراج، وهنا لابد من وقفة لنتساءل: إذا كانت حادثة الإسراء والمعراج ليرى الله محمد من آياته (الكبرى)، وإذا كان القرآن احتفظ بسر تلك الآيات الكبرى ولم يفصح عنها، فلماذا لم يحفظ الله بسر هذه الرحلة المباركة كلها ويجنب رسوله الكريم محنة. إنكار بعض المسلمين له !؟

جاءت حادثة الإسراء والمعراج لتفصل بين عهدين. عهد اكتملت فيه عقيدة التوحيد، وعهد يبدأ فيه التنفيذ العملى لأوامر الله ونواهيه، والذى ابتدأ بالصلاة التى فرضت فى تلك الليلة المباركة، والذى سيكون فيه محمد ﷺ هو المرجع الأساسى فى كيفية أداء الصلوات.

لذلك كان طبيعيا أن تبدأ هذه المرحلة بهزة عنيفة للمسلمين تنبه فيهم ضرورة الإيمان بمحمد – ﷺ – وأن طاعته واجبة حتى لا يختلف المسلمون فى تطبيق أوامر الله فيكون لكل مسلم طريقته الخاصة فى الصلاة، بل لابد من اتباعه فى كل ما يأمرنا به، وترك جميع ما ينهانا عنه فيقول سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [سورة النساء: الآية: ٨] ويقول عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾. [سورة الحشر: الآية: ٧] كما يقول الرسول الأمين: "صلوا كما رأيتموى أصلى..."، ويقول: "خذوا مناسكم عنى...".

الهجرة إلى يثرب:

لم يخرج الرسول ﷺ بعد حادثة الطائف من مكة حتى لا يتعرض لما تعرض له حين ذهب إلى الطائف. فصار كلما اجتمعت قبائل العرب فى موسم الحج يقدم نفسه إليهم ويدعوهم إلى الإسلام.

وفى موسم الحج التالى ليوم بُعاث خرج الرسول يعرض نفسه على قبائل العرب كعادته فى كل موسم. وبينما كان عند العقبة بمنى لقى ستة نفر من الخزرج، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فلقيت دعوته قبولا منهم، وعادوا إلى المدينة حيث أخذوا ينشرون الإسلام بين قومهم حتى لم تبق دار من دور عرب المدينة إلا وفيها ذكر الرسول.

فلما كان العام المقبل وفد إلى مكة اثنا عشر منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فبايعوا الرسول عند العقبة بمنى على الإسلام وتعرف تلك البيعة ببيعة العقبة الأولى. وبعث معهم الرسول، مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد الدار ليقرئهم القرآن ويدعوهم إلى عبادة الله. فنزل مصعب بإحدى دور المدينة وصار يدعو أهلها من العرب إلى الإسلام ويصلى بالمسلمين ويتلو عليهم القرآن. ولم يمض عام حتى أصبحت كل أسرة من عرب المدينة تضم فريقا ممن دخل فى الإسلام على يد مصعب بن عمير.

وفى العام التالى خرج من يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج من المسلمين الذين أسلموا حديثا قاصدين مكة، وكان بصحبتهم مواطنوهم من المشركين.

وقد اجتمع الرسول ﷺ بهؤلاء الوافدين من يثرب بالعقبة حتى لا يثير قريش ولا

يستهدف لعدوانها، وكان يرافقه عمه العباس – مع أنه لا يزال على دين قومه – ، وأبو بكر، وعلى بن أبى طالب.

وقد بدأ العباس بالكلام فى ذلك الاجتماع، فأثنى على ابن أخيه وذكر أنه فى عز من قومه ومنعة فى بلده، على أنه أبى إلا الانحياز إلى أهل يثرب، وطلب منهم أن يتدبروا قبل أن يأخذوا على عاتقهم الوفاء له وحمايته ممن يخالفونه، وأن يعقدوا العزم على ألا يرجعوا عن عهدهم إذا ما استهدفوا لخطر ؛ عندئذ أكد البراء بن معرور – أحد رجال الخزرج – أنهم صادقون فى عزمهم، وطلب إلى الرسول ﷺ أن يتكلم فى صراحة.

فقام سيدنا محمد ﷺ وبدأ حديثه بتلاوة بعض آيات القرآن ودعاهم إلى الله ورسوله ورغبهم فى الإسلام فقبلوا دعوته وبايعوه، وتعهدوا له بالدفاع عنه، كما رحبوا بهجرته إلى بلدهم، ثم قام أبو الهيثم مالك بن التيهان – أحد رجال الأوس – فقال: "يا رسول الله، إن بيننا وبين الناس (يعنى اليهود) حبالا وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا "فتبسم رسول الله ﷺ وقال: "بل الدم الدم والهدم الهدم. أنتم منى وأنا منكم، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم، أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا يكونوا نقباء على الناس". فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ليكونوا رؤساء عليهم. وبهذه البيعة التى تعرف ببيعة العقبة الثانية تمهدت للمسلمين الهجرة إلى يثرب.

أذن الرسول لأتباعه بمكة فى الهجرة إلى يثرب وقال: "إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها". فتجهزوا إليها فى ستر وخفاء، وصاروا يتعاونون بالمال. وكان كل مهاجر من قريش وحلفائهم يستودع دوره وماله رجلا من قومه، فمنهم من حفظ الوديعة ومنهم من تصرف وفق رغبته. وخرج المسلمون جماعة بعد جماعة، حتى لم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق، وعلى بن أبى طالب، وبعض أقرباء الرسول، ومن اعتقله المشركون كرها.

ويبقى سؤال وهو: لماذا كان عرب يثرب أسرع تقبلا للإسلام عن أهل مكة ؟

فمن الناحية الدينية : كان عرب يثرب كثيرا ما يسمعون من اليهود أن نبيا سيُبعث، فلما رأى حجاجهم سيدنا محمد وعرفوا أنه نبى مرسل، تحدثوا عنه إلى قومهم، فبادروا إلى تصديقه.

ومن الناحية السياسية: كانت علاقة اليهود بعرب يثرب سيئة، حتى إن هؤلاء العرب صمموا قبل هجرة النبى إلى المدينة على جلاء اليهود عنها واحتلال أراضيهم التى كانت أخصب بقاع المدينة. كذلك كان العرب أنفسهم متعادين، فقد وقعت بين الأوس

والخزرج حروب طويلة نخص بالذكر منها ما حدث فى (بُعاث) حيث غلبت الخزرج قبل الهجرة بسنوات قلائل.

وقد وجد بعد موقعة بعاث ميل من جميع القبائل العربية بيثرب من الأوس والخزرج إلى تولية عبد الله بن أبى سلول سيد الخزرج. غير أنه حدث أن قصد حجاجهم مكة واجتمعوا بالرسول ﷺ بالعقبة ثم بايعوه وقبلوا دعوته، كما رحبوا فى العام التالى بهجرته إلى بلدهم حين طلب منهم ذلك، وتعهدوا له بحمايته، فلما رجعوا إلى قومهم، دعوهم إلى نصرة الإسلام والدخول فى طاعة الرسول، فلقيت دعوتهم قبولا منهم وعدلوا بذلك عن تمليك عبد الله بن أبى.

وقد سارع الأوس إلى قبول دعوة الرسول والترحيب بهجرته لاعتقادهم أنه لن يتقدم عليه أحد بيثرب.

ومن الناحية الاقتصادية: فإنه لم يكن للأوس والخزرج فائدة مادية من وراء التمسك بالوثنية كما كان لقريش فى مكة رواج اقتصادى.

ومن الناحية العرفية: فقد رحبت الخزرج بدعوة الرسول ﷺ وهجرته إلى مدينتهم لأنه من أكرم بيوتات قريش وسادتها، ولصلة النسب التى تربطهم به.

ومن الناحية الأمنية: لقد كان لانهزام الخزرج فى موقعة بعاث جعلهم يسارعون إلى قبول الدعوة الإسلامية لوثوقهم بأنه الرسول يستطيع جمعهم مع الأوس تحت لوائه (كما أن فى هجرة المسلمين إلى يثرب ترجيح كفة العنصر العربى فى يثرب).

قريش تقرر قتل الرسول رغم أنف بنى عبد المطلب وبنى هاشم:

لما بلغ قريش تأهب الرسول ﷺ للهجرة إلى يثرب، اجتمع رجالها بدار الندوة يتشاورون فيما يصنعون فى أمره فاتفق رأيهم على قتله فأعلمه الله بذلك. وخرج من داره ليلا بعد أن أمر على بن أبى طالب أن ينام على فراشه وقابل أبا بكر الصديق وأخبره أن الله قد أذن له فى الخروج من مكة، فطلب منه أن يصحبه فى هجرته، فأجابه إلى ما طلب. ومضى به إلى غار بجبل ثور.

كانت قريش إذ ذاك ترقب حركات الرسول ﷺ، وانتدبت من تتبع أثره حتى وصل بعضهم إلى الغار، فأوجس أبو بكر خيفة، وأخذ الرسول ﷺ يهدئ من روعه، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ

ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.[سورة التوبة: الآية ٤٠]

فلما مضت ثلاث ليال على الرسول ﷺ وأبى بكر وهما بالغار، أتاهما دليلهما ثم نزلا وركب كل منهما راحلة وساروا فى طريق يثرب حتى بلغا ضاحية من ضواحيها تسمى قباء فنزل الرسول على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم أربعة أيام، وأسس بقباء مسجدا، ثم خرج يوم الجمعة راكبا ناقته، فلما أتى بنى سالم صلى الجمعة بمن معه من المسلمين – وهم إذ ذاك مائة – وهى أول جمعة أقامها الرسول ﷺ فى الإسلام. وألقى عليهم خطبة بدأها بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله. ثم قال: «أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم. تعلمن والله ليصعقن أحدكم. ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه – ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقة من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته».

ركب رسول الله ﷺ على راحلته بعد صلاة الجمعة متوجها إلى المدينة، فوصلها يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢م، وكان كلما مر على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم قائلين: يا رسول الله، هلم إلى القوة والمنعة، فيقول خلوا سبيلها (يعنى ناقته) فإنها مأمورة، ولم تزل ناقته سائرة به حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت فى مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار، ثم نزل رسول الله ﷺ عنها وحمل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى رحله وأضافه فى داره، واشترى الرسول المربد بعشرة دنانير وأمر أن يبنى فى مكانه مسجد للمسلمين، وبنى إلى جانبه مساكنه التى انتقل إليها بعد أن استغرق بناؤها سبعة أشهر قضاها فى ضيافة أبى أيوب الأنصارى، رضى الله تعالى عنه.

* * *